

فوتوغرافيا

في معرضه الفردي الجديد داخل «متحف سرسق»، يتخذ المؤرخ الفني والاكاديمي اللبناني موقفاً مدينيًا وسياسيًا وإنسانيًا من

المدن ومساحات العيش فيها. بيروت هي محور مشروعه الضخم والمتمهل. يقترح مصادر أخرى للذاكرة انطلاقاً من البيوت

المهجورة التي تتسم لسرديات تاريخية عنيفة تفوق قصص السكان المحليين. الصور والمرويات والوثائق والتجوال الالهي في

الاحياء، ولدت ارشيفاً هائلاً لامكنة هسنية، هو قبل كل شيء تاريخ لقرن ونصف من حروب وهجرات وازمات المدينة

البيوت المهجورة شاهدة على التحولات السياسية والاجتماعية

غريغوري بجاقجيان... حيوات بيروت



مشهد من فيديو مسكّن مهجورة، ارشيف،

روان عز الدين
لم يستعن غريغوري بجاقجيان (1971) بالأت خارقة لكشف أطراف الماضي واشباحه داخل البيوت المهجورة. الجدران مليئة بالفقوب والفجوات. ما عليه إلا إزاحة لوح خشبي لرؤية الأثاث تحول باحة منزل، أو أن يتسلق شجرة ليتلصص على تاريخ حميمي وعنيف لبيروت. في معرضه الفردي الجديد «مسكّن مهجورة: كشف أجهزة» في «متحف سرسق» (الاشرفية - بيروت)، يدخل المصور الأكاديمي والمؤرخ الفني اللبناني إلى البيوت بوصفها آلات زمنية بنفسها، يحميها غالباً سكنونها. كان عليه أن يتأكد بنفسه إن كان السكنون سكنوا حشياً، وإن كانت هذه المساحات تتسع للآلفة فحسب. كل شيء بدأ

مشهد من فيديو مسكّن مهجورة، ارشيف،

سيرة العمل التي تطبّبت تسع سنوات طويلة، في موازاة البحث الأكاديمي. أمام الدقة التوثيقية، لم يتخل عن المنظور الشعري في رؤية هذه البيوت، ولم يمنعه البحث النظري الأكاديمي من التجربة الحسية والملموسة مع داخل المنزل ومن التقيب عن الآثار المادية. هذه الرحلات التي تستحضر طقوسية متفرقة من العلاقة مع المدن والأحياء، تحمل على عاتقها موقفاً مدينيًا وسياسيًا من العزل السكني الذي تفرضه العمارات العالية الجديدة في بيروت. وبجاقجيان لا يستسلم إلى الماضي تماماً بل يحكم النوستالجيا. لا تزال هذه البيوت القديمة تعيش لأنومها كما يستحيل فصلها عن الحاضر وعن الماضي القريب الذي راكمت حيوات تتوالد منها سرديات جديدة تضاف إلى ما شهدته هذه الأماكّن في السابق.

المبني في منطقة المدور الذي كان مقرّاً لحزب اميل إده «الكتلة الوطنية»، صار ملجأ لسرب من الحمام، ثم امتلأ بالكتب الطبية اليونانية بعد أزمة اليونان عام 2015 بعدد عوة غداً على يد عريضة مطلع الثمانينات، تعرض وليد جنبلاط إلى محاولة اغتيال بجوار بيت تقي الدين الصلح في منطقة مينا الحصن. المبني الذي أنقذه وزير الثقافة غسان سلامة جريماً، شهد بعد سنوات طويلة، جريمة قتل فيها سائق آجرة عام فوتوغرافية.

بجاقجيان هو مؤرخ قبل كل شيء. مؤرخ بهيئة اركيولوجي ورخالة وقصص ومصصو. رحلاته مرّت بالأحياء ويكوّناتها البشرية وسلطاتها المستجدة. «كنت أمشي التي من بجاقجيان لها مسارات بحثية في رسالة للكتوراه قدمها عام 2016 في باريس، وكتابية في كتاب «مسكّن مهجورة: تاريخ لبيروت» (دار كاف). أما التحدي الحقيقي، فتمثل في تحويل هذا البحث المكتّف وأدواته إلى مادة فنية (تنسيق كارينا الحلو) نراها بجوار نافذة، أو تحت درج، أمام

هذه السينوغرافية المختطجة. بكاد يصعب ملاحظة أجسادهن فوراً، إذ يذبن مع الجدران أو مع الضوء. يظل حضورهن خفيفاً وطيفياً مثل صورة لفتاة داخل عقار 226 في رفاق البلاط. كان بجاقجيان لا يستسلم لهذا الفراغ، أو أنه يعترض بشكل ما على من أجبر السكان على المغادرة. لهذا السبب نفسه، أضرت على الدخول إلى البيوت سواء بإذن أو من دونه،

كان يستفسر من السكان ويفاوض قضايا الحي، وبقايا ميليشيات الحرب للدخول إلى بعض المباني يتسم هذا المشروع لانماط مختلفة من المراجع

ولم يكتفِ بالتفرج على هياكلها الخارجية، هكذا دعا صديقاته إلى الداخل، كما لو أنه يابن لهن، رغم كل العوائق والحواجز والأقفال الحديدية والقوى العسكرية أن يتملكن المنزل ولو للتحلّات النطاق: «هايمولي فوتو راغ» في إحدى السنوات، تحدّث مع الناس، وهم يتحدثون معي ويدلونني إلى بيت أو مبني». يخبرنا كان يستفسر من السكان ويستعين بهم ويفاوض قضايا الحي، وبقايا ميليشيات الحرب للمدخل إلى بعض المباني. يقوم المعرض على هذه التجربة الحية. إنها جزء أساسي من

من ناحية ثانية، يخبرنا بجاقجيان أن اختيار النساء هو موقف مديني ونسوي بداية، يؤكّد على أنهن جزء من المدينة لذلك حرص على أن تكون لويدياته علاقة مع البيوت التي صورن داخلها. في الصالة الأولى من المعرض، يطالعنا إطاراً رقمياً تتبدّل فيها مئات الصور. هي جزء من التقسيمات التي أجراها غريغوري للمباني، وتضمّنت أيضاً الحيوانات الحية للنباتات والحيوانات، والتصاميم الخارجية... على الشاشات نرى التصاميم الداخلية التي أخضعها غريغوري لتجزئة أخرى أيضاً تقوم على الممرّات، والبلاط، وطلاء الجدران، والأبواب، والنوافذ، والحمامات والطبخ والمداخل. هذا التوثيق الهستيري يبدو كما لو أنه محكوماً لمصائر المحفلة للابنية، وإن كان المصور منكباً على المباني بحالاتها الحاضرة. يصبح التآكل تراكمًا بدوره. تراكم يقوم على التبدل المادي في هذه الفضاءات، ما يحيل إلى أنماط استخداماتها في فترات زمنية مختلفة. إنه اعتراف بحياة أخرى تسير داخل هياكل منسّنة. الحرب الأهلية ليست كلّ الذاكرة، إنها جزء منها. بعزو غريغوري حضورها كسبب مباشر أحياناً إلى قرب البيوت من وسط المدينة مثل عين المريسة والباشورة. في العقدين الفاتحين، شهدت المناطق العديدة عن الوسط وعن خطوط التماس مثل راس بيروت والاشرفية، عمليات إخلاء كبيرة أيضاً بسبب المشاريع العمرانية والاستثمارات الكبيرة. هجرات تسبقها وتليها هجرات منذ الاحتلال العثماني، والانحداب الفرنسي والخمسينيات وصولاً إلى اليوم. تظهر الفترات الزمنية في تجهيز صفمته مارك بارود ومارك ديبه، وفق تقسيمات المناطق: الدور، عين المريسة، المرزعة، رفاق البلاط، راس بيروت، الصيفي... يصنع بجاقجيان ما يشبه بطاقات هوائية للبيوت تتضمّن صورة خارجية للمبني، والحقبات الزمنية

التي تنتمي إليها، ورقم العقار، والمساحة، وحالة المبني، وتحولاته. وضعت البطاقات البيانية على طاولة تدعو الزائر إلى التقلب والقراءة مثل المواد الأرشيفية. هكذا بنى بجاقجيان أرشيفه الدقيق للمباني، وجعله في متناول الناس. بعد عودته من البيوت، كان يستعين بالخرطة لتحديد أرقامها العقارية. كذلك استعان بملف من بلدية بيروت، وبمساعدة من «المركز العربي للعمارة». يتّسع هذا المشروع لأنماط مختلفة من المراجع والممارسات البحثية، أبرزها الشهادات الحية والمرويات التي لا يمكن لأحد أن يستمع إليها إلا من الشارع والتجوال فيه. بهذه الطريقة، جمع الفنان حوالي 700 غرض من البيوت. نوع من التقاط الأثر، ومن التقيب الأركيولوجي المعاصر في سير وحيوات مرّت بخفوت وسبّخ تجاهلها من قبل الباحثين بشكل عام. «رح جن» تتردّد العبارة مراراً في رسالة كتبتها امرأة تعيش في بيروت. ترني المرسله حال البلاد والمياه والكهرباء والضغط النفساني التي تتلقاها، وتخبر صديقتها «شربت كاس ويسكي من شوي لأقدر نام». ما الذي قد يدفع امرأة تسكن في شارع السادات إلى بعث رسالة لصديقتها في شارع كليمنصو؟ يخبرنا الفنان أنها أرسلت خلال فترة حرب التحرير عام 1989. حيث كانت القذائف تمنع الناس حتى من الخروج إلى الشارع. هكذا تصبح هذه اللقي دالات بقسها على حقبات سياسية عاشها الناس وتفاعلو معها وتقررت بسببها مصائرهم. نرى كل ذلك في فيديو «مسكّن مهجورة: أرشيف» من إخراج مالك حسني. يخرج غريغوري بجاقجيان وزميلته الكاتبة فاليري كشر الأعراس، ويفرسانها على أرضية داخل استديو. رسائل واليوميات صور ودفاتر وجوازات سفر وجرائد وعلب أدوية (معظمها للأعصاب) واسطوانات وبطاقات بريدية.

يقرآن الرسائل والأوراق بالإنكليزية والفرنسية والعربية، ويخبرنا عن تعاليم مفصلة لاستخدام السلاح كتبت في دفتر لأحد عناصر منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت تقطن مبني في شارع الحمرا. تكّتب تخطّطها ولو بشكل شفهي. لهذا كان الفيديو وفق بجاقجيان طريقة أفضل من عرض الأعراس نفسها في الغاليري من أجل حماية خصوصية أصحابها الذين يدعوهم الفيديو إلى المطالبة بأعراسهم إذا ما تعرّفوا إليها.

* «مسكّن مهجورة: كشف أجهزة» حتى 11 شباط (فبراير) 2019 - «متحف سرسق» (الاشرفية - بيروت). للاستعلام: 01/202001



من المجموعة الفوتوغرافية لـ «مسكّن مهجورة»



من المجموعة الفوتوغرافية لـ «مسكّن مهجورة»



من المجموعة الفوتوغرافية لـ «مسكّن مهجورة»



من المعرض



من المعرض